«الذاتيّة» عند محمد إقبال:
نقضٌ لمذهب وحدة الوجود

الدكتور/ محمد السعيد جمال الدين(*)

أحاول في هذه المداخلة أن ألقي الضوء على النقطة المركزية والنواة الأساسية التي دارت حولها الإسهامات القيّمة التي قدمها محمد إقبال لإصلاح الفكر الإسلامي، والتي انطلقت منها مساعيه للنهوض بأحوال الشعوب الإسلامية في جوانبها السياسية والعملية.

كانت هذه النواة هي الركيزة التي أحسب أننا نستطيع أن نردّ إليها كل أفكاره وكل أعماله، بل وكل رؤاه وأمانيه؛ وأعني بها نظريته التي سماها «الذاتية».

وأعرض الآن ـ في إجمال ـ للمرحلة المهمة في حياته التي تبلورت فيها هذه النظرية، وهي الفترة التي أعقبت عودته إلى بلاده من لندن بعد حصوله على الدكتوراه سنة ١٩٠٨ وحتى سنة ١٩١٥، السنة التي نشر فيها ديوانه الشعري الخالد «أسرار الذات»، وأبان فيه عن مذهب جديد لإصلاح الفكر الإسلامي.

***

لم يكن أحد في شبه القارة الهندية يعرف عن إقبال ـ حتى سنة ١٩١٥ التي شكلت نقطة تحوّل في حياته الفكرية والعملية ـ سوى أنه شاعر أهمّته أحوالُ أمته الإسلامية، التي ارتفعت راياتها في الآفاق طيلة قرون سابقة، فإذا بها الآن تصبح فريسة للاستعمار الذي شمل البلاد الإسلامية من أقصاها إلى أدناها؛ فانطلق إقبال يشدو بقصائد ـ باللغة الأوردية ـ يشكو فيه إلى الله تعالى ما آل إليه حال هذه الأمة التي كانت ثم أصبحت.

بل إن أساتذته من الهنود والإنجليز لم يكونوا يرون فيه إلا شاباً واعداً، يبشر بمستقبل رائع يجعله واحداً ممن يدورون في فلك النظام السائد والفكر المعمول به آنذاك، وأنه لن «يذهب بطريقتهم المثلى»، التي هم عليها.

وفي هذا الإطار نفسه أوصى أستاذُه الذي درّس له الفلسفة الإسلامية في الجامعة «الأستاذ توماس آرنولد» باستكمال دراسته في جامعة كامبريدج بإنجلترا.

(*) أستاذ. بقسم اللغات الشرقية كلية الآداب. جامعة عين شمس.

وحين عاد إقبال إلى بلاده حاملاً درجة الدكتوراه (وكان ذلك سنة ١٩٠٨)، وتم تعيينه مدرّساً في الجامعة والكلية التي تخرج فيها في لاهور، لبث يعمل فترة في الجامعة ثم اعتزل العمل مفضّلاً الاشتغال بالمحاماة، لكي يكسب منها قوته، وكان قد حصل على دبلوم في القانون خلال فترة وجوده في لندن يؤهله للاشتغال بتلك المهنة.

وبدا منه حينذاك أن الاشتغال بمهنة حرة يكسب منها قوته يبعده عن أن يكون أداة أو واحداً من تروس تلك الآلة الجبارة التي تدير الحياة السياسية والثقافية في بلاده وسائر البلاد المستعمرة، وتعمل بلا كلل للإبقاء على الأوضاع لا تتغير؛ فيبقى المستعمر على هيمنته والمستعمَر على ضعفه واستكانته، إذا ظل يعمل في وظيفة تشرف عليها الحكومة الإنجليزية.

واختلى بنفسه يتفكّر، ووجد في الشعر متنفساً لما هو فيه من همٍّ مقيم بسبب بوادر الانهيار التي بدت على الإمبراطورية العثمانية، وانتزاع إيطاليا للأراضي الليبية سنة ١٩١١ ومظاهر الضعف والانهيار التي يراها من حوله. وجادت قريحتُه الشعرية – في تلك المرحلة الحرجة من حياته، بثلاث قصائد، لقيت من الناس حفاوة بالغة، وهي «طلوع الإسلام» (١٩٠١م)، و«شكوى» (١٩١١م)، و«جواب شكوى» (١٩١٣م)، عبر فيها عن مشاعر إنسان مسلم يحس بالغربة في عالم لا يرحم ضعيفاً مثله، ويبتهل إلى الله أن يعيد إليه كرامته وعزّته، لكن ماضيه في خدمة الله وخدمة عباده لا تشفع له عند الله ولا تُجدي نفعاً عند الناس؛ ولا علاج له إلا بإصلاح نفسه هو، تلك النفس التي أصابها الوهن وسقوط الهمّة وخَوَر العزيمة فتخلّفت عن الركب.

وتدور المعاني في هذه القصائد الثلاث في هذا السياق، سياق توصيف الأزمة دون العثور على علاج حاسم لها.

* * *

غير أن الوضع ما لبث أن تغير في مطلع سنة ١٩١٥ حين خرج إقبال على الناس بوجه آخر غير ما ارتضوه منه وحَمَدوه عليه، فقد قال في شعره (الذي نظمه هذه المرة باللغة الفارسية لا بالأوردية وأطلق عليه اسم «أسرار الذات») ما أسخط أغلبهم عليه، واستشاط الصوفية من أصحاب محيي الدين ابن عربي- الذي سموه «الشيخ الأكبر» غضباً. وكان أغلب الصوفية في الشرق عامة والهند خاصة من أنصار مذهب وحدة الوجود، فكثر الساخطون على إقبال لأنهم يرون في الذاتية أمراً نُكراً، فهذه النّفس الإنسانية ينبغي- في زعمهم- إذلالها وإماتتها حتى تؤهّل للفناء في الله.

فما بال إقبال، يدعو إلى تقويتها وتنمية مواهبها واستنباط ما فِ فطرتها، بل يدعو إلى إحكامها حتى تكون ثابتة متماسكة رابطة الجأش أمام الله ـ تعالى ـ مثلما فعل محمد ﷺ حين مَثَل في حضرة ربّه في نهاية رحلته المعراجية. وقد عبر أحد هؤلاء الصوفية عن هذ المعنى بقوله «لقد صعد محمد النبي ﷺ في معراجه حتى بلغ سدرة المنتهى وكلم ربه ثم عاد إلى الأرض، والله لو أني بلغت هذا المقام لا عدت أبداً».

لقد رأى ناقدو إقبال أن هذا الحال يمكن أن يكون ميسّراً للنبي ﷺ ومقدّرا له، غير أنه ليس متاحاً لغيره، فغاية النفس ومُناها ـ بزعمهم ـ أن تفنى في النّور الإلهي كما تفنى الفطرة في البحر.

وقد ردّ إقبال على هؤلاء المعترضين بقول الرسول ﷺ. «تخلقوا بأخلاق الله» مبيناً أن الإنسان كلما شابهَ هذه الذَاتَ الوحيدة كان كذلك فرداً بغير مثيل تكتمل صفاته الإنسانية حين يمثّل الخالق في نفسه، لا يُفنى وجوده في وجود الله. فدعوة الرسو ﷺ هنا لا تعني الفناء بأي حال. على أن ذات الإنسان تقوى بالحب الإلهي ولا تتبدد بسبب هـ ا الحب، فخاصّة الحبّ إظهار انفراد المحب واستقلاله عن الحبيب، مثلما يظهر الانفراد بين العبد والمعبود في الصلاة.

***

كان أكثرُ مَن تملّكه العجب والدهشة من التحوّل الذي طرأ ء لى فكر إقبال أستاذه والمشرف على أطروحته للدكتوراه «ماك تاجرت» (MC Taggart) وهو واحد ، ن كبار الفلاسفة المحدثين من الإنجليز. فحين نُشرت الترجمة الإنجليزية لديوان «أسرار الذات» كتب يقول لإقبال:

«ألم تُغيرّ موقفك تغيراً كبيراً؟! بكل تأكيد، فحين كنا نجـ س للحديث سوياً في الفلسفة كنتَ أكثر تمسّكاً بوحدة الوجود والتصوف»[1].

لقد أدرك ذلك الفيلسوف النّابه أن «نظرية الذاتية» التي يدعو إليها إقبال تمثّل تحولاً بالغ العمق والدلالة في توجهاته الفكرية التي كان على قناعة بها حتى وقـ ت قريب، ورأى أن الذاتية تُعدّ في حقيقتها «نقضاً» لمذهب وحدة الوجود، ذلك المذهب الذي سـ اد العالم الإسلامي منذ القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، والذي توجّه الفكر الأوروبي إليه بكليّته منذ القرن السابع عشر بتأثير من «اسپينوزا»، لكن طبائع الغربيين التي جُبلت على حب الحركة والعمل بدّدت كل أثر

(١) نشر الأستاذ سيد عبد الواحد هذا الخطاب في كتابه
Thoughts and Reflections c f Iqbal, Lahore, 1954, p.112.

لهذا التوجه، كان الألمان وهم الذين سبقوا إلى إثبات حقيقة «أنا» الإنسانية المستقلة، وتبعهم الإنجليز، الذين لم يَرج عندهم كلُّ نظام فلسفي من نسيج الفكر لا يثبُتُ في ضوء الواقع.

لقد رأى إقبال ـ في تأمّلاته التي استمرت طويلاً حتى تبلورت نظريته في الذات الإنسانية، أن القضية لا يجب أن يُنظر إليها باعتبارها قضية فلسفية فحسب إنما ينظر إليها بقدر آثارها في حياة الأمم والشعوب، فحين نفضت أوروبا يدها من أسطورة «وحدة الوجود»[1] بدأت نهضتها، لأن دعوة «تَرك العمل» التي تدعو إليها تلك الأسطورة لا تلائم طبائع الشعوب الأوروبية المحبّة للعمل.

غير أن هذه الأسطورة نفسها ظلت تعمل عملها بين الشعوب الإسلامية، لأن الذي حمل لواءها كانوا شيوخاً كباراً وروّاداً صالحين «لا يكذبون أهلهم»، لكنهم ـ على صلاحهم ـ أخطأوا في فهم القضية.

ومما زاد الأمر سوءاً أن الصوفية من أصحاب وحدة الوجود اتخذوا الشعر وسيلة لنشر مذهبهم بين العامّة، فكانوا ـ كما يقول إقبال: «أشدّ خطراً وأكثر تأثيراً حتى أشاعوا بدقائقهم هذه المسألة بين العامّة، فسلبوا الأمّة الرغبة في العمل»[2].

وكان كبار العلماء ـ كابن تيمية وتلاميذه ـ قد عارضوا مذهب وحدة الوجود معارضة شديدة، لكن هذه المعارضة لم تترك إلا بعض الأثر، لأن وسيلتهم في ذلك كانت مقصورة على الخطابة وتأليف الرسائل والكتب، فلا غيب أن «جفاف المنطق لا يقوى على مقاومة نُضرة الشعر وفتنته»[3].

ولا شكّ في أن إدراك إقبال لدور الشعر في الدعوة إلى القضايا الكلية التي تحسم مصائر الأمم هو الذي دفعه إلى اتخاذ الشعر وسيلة لبيان حقيقة الذاتية، وهو يُعدُ شاعرٌ فذَّ ذاع صيته بين الناس بقصائده البديعة التي نظمها وترنمّ بها الناس في بلاده، ونالت من التجاوب والاستحسان ما نالت، كما أسلفنا.

---

(١) لا زال هناك عدد من القائلين بوحدة الوجود في أوروبا، ومذهبهم في ذلك «لا يتعلق بالدين بل بحقيقة العالم» (من رسالة إقبال إلى السيد حسن نظامي)، انظر، عبد الوهاب عزام، محمد إقبال، ص٦٤.

(٢) من رسالة إلى سراج الدين بال (١٩١٦م)، انظر، عبد الوهاب عزام، محمد إقبال، طبع مصر ١٩٥٤م، ص ٥٢.

(٣) انظر مقدمة الطبعة الأولى لديوان «أسرار الذات»، وقد ترجم الدكتور عبد الوهاب عزّام بعضها إلى العربية، راجع كتابه، محمد إقبال، ص ٥٢ أيضاً.

وكانت عاقبة ذلك وبالاً على هذه الشعوب، فقد فقدت الرغبة في العمل وركنت إلى التّواكل وحَمْل النفس على الآخرين وعزَفت عن اقتحام ساحة التدافع الإنساني؛ فتخلفت عن ركب الأمم.

وهذه هي النتيجة التي تجنيها الأمم حين تحطّ من شأن نفوس أفرادها وتزدري قيمتَهم.

***

وهكذا بدت نظرية «الذاتية» نقضاً لمذهب وحدة الوجود. قد استخدم إقبال في الدعوة إليها كل ما أوتي من فكر وفنّ، وبنى عليها مشروعه الإصلاحي في شتى مجالات النشاط البشري، في الدين والثقافة والسياسة والفنون، لا في العالم الإسلامي وحده بل في العالم أجمع.

وقد عبّر إقبال عن هذا المعنى شعراً في أوائل ديوانه أسرار الذات بقوله:

«لما أردا الله أن يغير ما حل بالمسلمين من تخاذل وسقوط همة، جعلَ في كلامي قوة التأثير، وأودَع في شعري قوّة خارقة تفعل الأعاجيب بنفس المؤمن. لقد ألهم الحق - عز وجل - صلاحِيتي، فكشف أمام منظار قلبي عن مكنون الحقائق والمعارف؛ فها هي ذي الحقائق المحتجبةُ تتراءى لعينيّ. أقامني الله - جل وعلا - بقدرته شمساً تتبدّد بها الظلمات، وتَبيد بها الجراثيم الفتاكة، وتتوارى بطلعتها الأفكارُ الخاطئةُ إلى غير رجعة، وتتلاشى بها مشاعرُ الخنوع والاستكانة. من تلقاء الشرق عَلَت صيحتي. فقوّضت أركانَ الليل، واستقرّ على وَجَنات ورودِ العالم بأسرِه نَدَىً جديد»[1].

(١) محمد إقبال، كليات أشعار فارسى، طبع أحمد سروش، طهران ١٣٤٣هـ.ش. (١٩٦٠م)، ص٥-٦.